"أولوياته"...

١ / المجد:

أبو الطيب.. أراق الدموع السواكب على هدف "جلَّ أن يُسمى":

ومن يبغِ ما أبغي من "المجد" و"العُلا" تساوى المحايا عنده والمقاتل

وطوى زمانه لأجله، وتقلّب "في كُلّ بلدةٍ" لبلوغه، وفارق الأحباب ليصل إليه[١]..

حتى أسماه "حقاً" – قد سُلب..، أو أُحيل بينه وبين بلوغه –:

سأطلب حقي بالقنا[٢] ومشايخ كأنهم من طول ما لاثموا مرد

..فكان.. في إنشائياته.. مدلول على البحث عنه، بذاتٍ.. يقصر في عينيها المدى المتطاول ويسهل في العدو إليه.. كل صعب:

ومن الناس من يرضى بميسور عيشه[٣]!!

فانتهى إلى (وهمٍ) كان يضن به المرام، وإلى (سرابٍ)[٤] حَسِبه ماء من

---

[١] ..فالشجاعة : لا تعرف المستحيل! – كما يقول الرئيس الأمريكي (روزفلت) –

[٢] القنا: السيف، ولكنه – كما يقول الواحدي – عنى به نفسه.

[٣] ..وألقى عبد الله بن حميس مفلسفاً الحياة.. في:

ليس الحياة كما توهّم جاهلٌ عيش الكفاف ومستوى محدودا

إن الحياة هي الصراع،.. فكن بها أسداً يُصارع أذؤباً وأسودا

[٤] قال أمية بن الأسكر لابنه – ينشدُ القعود عن الجهاد لبِّره.. وقد هرم –:

فإنك والتماس الأجر بعدي كباغي الماء يتبع السرابا

-...

بعد.. قِيعه، وإذا بـ(الحقيقة المُرّة)[1] يقولها لنفسه:

تُريديـــن إدراك المعـــالي رخيصـــة ولا بد دون الشـهد مـن إبـر النحـل

ولم تكن - إبر النحل - عدا سلاح "فـاتك الأسـدي" الـذي أطفـأ شمعـةً احترقت[2] مـن أجـل إضـاءة[3] "ديـوان العـرب"[4]، ولم يلـقَ - بعـد - "المعالي" التي استغرق.. خلفها!

٢ / الغرور:

..وتبع هذا الطلب "المجد والعُلا" الكبريـاء والغـرور، وهـي مـن أُولى مـا يُنعت به شاعرنا، ألم يقل:

أمـط عنـك تشـبيهي بمـا وكأنمـا فمـا أحـد فوقـي ولا أحـد مثلـي

و - بثقة لا حدود لها -:

مـن كـان فـوق محـل الشـمس موضعـه فليـس يرفعـه شـيء ولا يضـع

-...

- الإصابة (١/٧٩) لابن حجر العسقلاني -

(١) قال مارك توين: (الحقيقة: مثل النحلة في جوفها عسل وفي ذنبها إبرة).

(٢) كما وصف العباس بن الأحنف - نفسه.. - بـ:

صِـرت كـأني ذُبالـةٌ نضبـتْ تُضـيءُ للنـاس.. وهـي تحـترق

(٣) ..قال أحد الفلاسفة:

هناك طريقان لنشر النور: أن تكون أنت الشمعة، أو المرآة التي تعكس هذا النور.

(٤) على وصف أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، للشعر بـ "ديوان العرب".

قال ابن مشرّف:

والشـعر ديـوان العـرب وكـم أنـال مـن إرب

ثم.. يُغلق طُرق كل من يُريد انتقاصه - من حُسّاده - بجهد أو بدون جهد، وأن مرامهم بعيد المنال - فليوفّروا تعبهم - :

وفي تعب من يحسد الشمس نورها ... ويُجهد أن يأتي لها بضريب[1]

لأن مكانته "السامية" لا تحتاج إلى دليل - على حدّ تعبيره-..

فليس يصح في الأفهام شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

.. أدرك أبو الطيب - بنظر النجيب - أن "المجد" المطلوب.. لا يبلغه إلا "**سيّدٌ فطن**". وأنه بدون المشقة لـ "**ساد الناس كلهم**"،.. - لا جاهل..أو: "**كوارثٍ.. جهلت يمناه ما كسبت..**"- فامتطى "الشعر" سُلّماً لبلوغ المجد، بعد أن بلغ إمارة الشعر - الوسيلة - حتى سما به الأمل وحداه ذروته لـ"الإمارة والحكم"[2] التي هي "نفيس" أُمنياته من زمن بعيد،..

- أُعلل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ -

حتى لو غيّر بالمنهج، ولو أن يتنازل عن جميع منازعه القومية السابقة، والسياسية الماضية.. لبلوغ (الولاية)[3]، ولو وجد ملجأ، أو مُدّخلاً لأمّ إليه دون موارية لتحقيق مناه!!

- وحاله مُستشهداً:

إذا كنت ترجو كبار الأمور ... فاعدد لها همة أكبرا -

---

[1] ضريب: مثيل.

[2] و.. كما قال "الأخطل الصغير": "**طلبت بالشعر.. دون الشعر منزلة**"...إلخ

[3] ..كما قال "ميكافيلي" - وإن كنّا لا نوافقه على هذا -: (الغاية تبرر الوسيلة).

فالأمل من هذا المُؤمّل "أن يكون أميراً يُمدح، لا شاعراً يَمدح".

على أننا لنحمد الله "المحمود بكل حال سبحانه"[1] أن هـذا الفحـل[2] – شعراً- لم يبلغ ما عنى أو ينل ما تمنى، و لم يتحقق له ما ترجّى!

..وإلا لما ترك لنا هذه (الحِكم) النازفـة مـن قلـبٍ.. تقلّـب عليـه تقلّـب الأحوال، وتناقلت بين سـواعده شتى المصـاعب والأهـوال، ودار عليـه الزمن.. الذي لا يتغنّى بموال..

وقلّـة نـاصرٍ – جُوزيـت عنّـي بشـرٌ منـكِ يـا شـرّ الدهـور

و لم تحظَ لغة "الضاد"[3] من نتاجه - على حالـه... مـن تقلّـب أحوالـه - بهذا الميراث الأدبي الخـالد، الـذي - برغـم الهجـوم علـى لغتنـا في عهـد

---

[1] .. منطبقاً علينا – بهذا الشكر لله على أنه لم يبلغ مأمله – قوله:

مصائـب قـوم عنـد قـوم فـوائـد

[2] الفحل/ الشاعر الذي يغلب كـل شـاعر يعارضـه، أو يفضـل عليـه – (هـامش "يتيمـة الدهر" ١/١٤)-

[3] هي لغتنا الأم، خرجت من الجزيرة واتجهت إلى الشام وفارس والهند ومصر..إلخ.

قال – معرفاً – رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس، إن الرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمـن تكلـم العربيـة فهو عربي) – أهمية تعلم اللغة العربية / ص٥٠ – ٥١ لـ (د. عبده بدوي)

و..كتب محمد القوصي (قد ظل ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم قائماً، وكـان الهـدف الأساس من دراسة اللغة العربية هو فهم الديـن فهمـاً كـاملاً، والوقـوف على معانيـه باعتباره وسيلة إلى فهم الأحكام الشرعية، وقد أكسب هذا الارتباط تلك اللغـة نوعـاً -...

الاستعمار[1] - ظل صامداً..، ومضى كل فاه طاهـا - وقـد حفظهـا الله "بالقرآن الكريم" - بسروال خيبته خامداً.

و..لنُعيد ما قاله: **مصائب قوم عند قوم فوائد**

إذاً..مصائبه عند أهل اللغة والأدب... وذوّاق القريض (فوائد..)!

٣ / التقتير:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وكان الإنسان قتورا﴾[2]

...-

من القداسة التي للقرآن، وأصبح الحفاظ عليها حفاظاً على القرآن، والتفريط فيها تفريطاً في القرآن) ص٩ - من كتيب المجلة العربية عدد (٥٢)

- ..وأيضاً: فالحق ما شهدت به الأعداء، قال (قال ورل): إن اللغة العربية لم تتقهقر قط فيما مضى، أمام أي لغة من اللغات التي احتكت بها..إلخ - المصدر السابق ص١٢

..ومع هذا، فـ/ هل تعلم (أن عدد أبنية كلام العرب ا لمستعمل والمهمل (١٢,٣٠٤,٣٢١) إثنا عشر مليوناً من الأبنية، وثلاث مئة ألف، وأن عدد الألفاظ العربية (ستة ملايين وست مئة وتسعة وتسعون ألفاً).. لا يستعمل منها سوى (٥٦٢٠) لفظاً، والباقي مهمل!!) - كتاب "العين" للخليل بن أحمد -..مرجع سابق ص٧-٨

[1] وذلك - حينما رماها المستعمر بالقصور، وعـدم الكفايـة..إلخ وقـد هـبّ - مـع مـن هب- (حافظ إبراهيم) - منافحاً وذائداً، على لسانها:

وسـعت كتـاب الله لفظـاً وغايـة وما ضقـت عـن آي بـه وعظـات

..أنـا (البحـر) في أحشـائه الـدرّ كـامن فهـل سـاءلوا الغـواص عـن صدفـاتي؟

[2] الإسراء، آية ١٠٠، ولنعرّف بأن ذلك مما جُبلت عليه النفس البشرية..، كمـا جُبلـت على أشياء.. كحب البقاء والخلود مثلاً، والذكر - أو../ العمر الثاني.. كمـا يزعـم أحمد شوقي - (انظر ما تقدم ص ٥١ هامش ٤)

.. قد تكون "مُعضلة" أبي الطيب أنه لم يُولد وفي فمه - كما يقال بالمثل- (ملعقة من ذهب)[1]،.. ولأنه يعلم - علم اليقين - أن:[2]

لا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله[3] ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده[4]

---

[1] - قال الأول - معرباً -:

إذا ورّث الجهال أبناءهم غنى وجاهاً ، فما أشقى بني الحكماء -

[2] ولهذا - ما يناسب - قول.. أهل ذا التفنن:

قيل: ليس من خِلّة للغني مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان الفقير حليماً قيل بليد، وإن كان عاقلاً قيل مكار، وإن كان بليغاً قيل مهذار، وإن كان ذكياً قيل لئيم، وإن كان صموتاً قيل غبي، وإن كان متأنياً قيل جبان، وإن كان عارفاً قيل متهور، وإن كان جواداً قيل مسرف، وإن كان مقتصداً قيل بخيل.

قال ابن كثير:

الناس أتباع من دامت له نِعَمُ والويل للمرء إن زلت به القدم
المال زين، ومن قلّت دراهمه حيّ كمن مات، إلا أنه صنم
لمّا رأيت أخلائي وخالصتي والكلّ مستتر عني ومحتشم
أبدوا جفاءً وإعراضاً، فقلت لهم: أذنبتُ ذنباً؟ فقالوا: ذنبك العدم!

[3] قال أحد الشعراء معبراً عن ذلك:

من كان يملك درهمين تعلّمت شفتاه أنواع الكلام فقالا
وتقدّم الإخوان فاستمعوا له ورأيته بين الورى مختالا
لولا دراهمه التي في كيسه لرأيته أسوأ البرية حالا
إن الغنيّ إذا تكلم بالخطأ قالوا صدقت وما نطقت محالا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم في المواطن كلها تكسو الرجال مهابةً وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السِّنان لمن أراد قتالا

فإذا (المجد) من أعمدة تشييده "المال"[1]..، قال (أحمد شوقي):

بالعلم والمال يَبني الناس ملكهم[2] لم يُبن ملك على جهل وإقلال

لذا/ فقد بحث عنه كـ"من أضاع في التُّرب خاتمه"[3] لماذا؟

إذا لم تجد ما يبتر الفقر.. قاعداً فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا

و..للجواب على هذا السؤال.. يجدر بنا أن نبسط بالتالي:[4] -إيراد.. أو تذكّرٍ لحادثةٍ جرت له في "الكوفة" - وهو غلام - رواها البديعي في "الصبح المنبي" خلاصتها:

-...

[4] - أو قول الآخر:

فالمال فيه تجلّةٌ ومهابةٌ والفقر فيه مذلّةٌ وفضوحُ

[1] ..كما قال تعالى ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ الكهف، آية٤٦، وقال صلى الله عليه وسلم (نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح)..، قال عروة بن الورد:

ذريني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير

ويبعده القريب وتزدريه حليلته[*] وينهره الصغير

- [*] أي: ..زوجه

[2] قال حكيم العرب (قيس بن عاصم):

المال منبهة شهرة الكريم، ومغنى عن مسألة اللئيم، ثم قال: المسألة/ آخر كسب الرجال.

[3] على تمثيله - هو -، ..قال ابن فُروجه:

(لم يكن فيه ما يُشينه ويسقطه، إلا بخله وشرهه على المال) - سِفر المتبي لمحمود شاكر/ ص١٦٥ -

فـ/ كفى بالمرء نُبلاً أن تُعدّ معايبه

[4] سرد.. لخلفية ذا "التقتير" لدى الشاعر.

(.. أنه أراد أن يشتري بطيخاً من بائع، فلما ساومه على الثمن سبّه البائع واحتقره. ثم جاء تاجر غني فرحب به البائع وباعه البطيخ محمولاً إلى البيت بأبخس مما عرض عليه المتنبي. ولما رجع كلمه المتنبي في ذلك فقال: اسكت، هذا يملك مئة ألف دينار. فوقع في نفس شاعرنا ذلك الحين حب المال والحرص عليه وأن الناس لا يحترمون غير صاحبه).[1]

نعود لنجيب عن السؤال السابق:

عاش المتنبي فقيراً في عهده الأول، وذاق بذلك العهد ألم الحرمان[2] وأيضاً ذل السؤال،[3] – حين قُدر[4] عليه رزقه–، ورغم اعترافه من بعد أن:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر، فالذي فعل الفقر

..إلا أن بصمات ذلك العهد "الأول" ظلّت تلعب بمخيلته، وتتجاذب إليها الوهم – أو الخوف الداخلي – "بعودته"..،

فأصبح رغم عزّة النفس والكبرياء والشموخ الذي يراه لنفسه –أو يصبغه عليها–.. يتمسّك بالمال حتى آخر عهده.[5]

---

[1] الصبح المنبي ١ – ٨٣.

[2] كما قال من سبقه:

دعيني للغنى أسعى، فإنني رأيت الناس: شرهم الفقير

[3] قيل بلغ ممدوحيه بالعهد الأول من حياته ٤٠ ممدوحاً.

[4] أي../ ضُيّق.

[5] راجع رواية مقتله – مع ضعف سندها – والتي أثبتها ابن رشيق في "العمدة" ج١ ص٧٥–

ولو أعطى (أبا مُحسّدٍ) سُنحة لناصح، لقلنا له - تذكيراً وبجليّ ممن أتى بعده[1]-:

هوّن عليك، وكفكف دمعك الغالي ..لا يجمع الله بين الشعر والمالِ[2]

إلا أنّا لا نرى ذلك عيباً فيه "إذا فُسّر ذلك علمياً"..!

فكلٌّ يبحث عما ينقصه[3]، فأبو الطيب طلب المجد "الإمارة" وليست - هنا- تنقصه، بل يطمع بها.. لما يرى من تملّك الفرس والأتراك دُفّة الأمور في الدولة العباسية[4]..

---

[1] كما قال الآخر:

رضينا قسمة "الخلاق" فينا لنا علم وللجهال مال
فإن المال يفنى عن قريب وإن العلم ليس له زوال

[2] كتب زياد بن عبد الله الحارثي إلى الخليفة المنصور يسأله الزيادة في عطائه وأرزاقه.. وأبلغ في كتابه، فوقّع المنصور في القصة: إن الغنى والبلاغة إذا احتمعنا في رجل أبطرتاه.. وأمير المؤمنين يشق عليك من ذلك.. فاكتفِ بالبلاغة!

- قيل لحكيم: ما الذي يحل المعضلات؟، قال: الدرهم والدينار.

فالمال.. هنا تسيير لمعضلة معسرة.. وقديماً قيل في النقود:

فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السنان لمن أراد قتالا!-

[3] ..ألم يقل أهل الفلسفة - في اختيار المحبوبة - إن الحبيب وجد بها ما يُكمّله، أو عثر على ما ينقصه لديها.

لذلك يصوّر الشاعر مقام (حبيبته):

كأنّكِ جزءٌ من حياتي أضعته فلما التقيتكِ اهتديتُ إلى أصلي

[4] ..وقد أومأنا لشيء من المقصد - فيما تقدم ص٢١ وص٢٢ -

فكيف لا يُحرّك ذلك (ساكناً) من نفسيته "المعبأة بالعصبية العربية الجعفية، المُحدّرة من السلالة اليمانية"، فلا يخمد ذلك المطلب.. حتى لقي الفارس العربي "سيف الدولة"، فإذا فارقه.. يعود طالباً الإمارة -كما في عهده عند كافور-

إلا أن القصص - بعضها - التي رُويت عن بخله لا تحمل وزن الثقة الكاملة، ليس لأن شاعرنا ذم البخل فحسب...، بل:

وأسرع مفعول فعلت تغيّراً تكلّف[1] شيء في طباعك ضِدّه

فإذا كيف يذم البخل ثم يبخل[2]!، فلا جواب لمن صحّح كل ما قيل من قصص بخله - التي قد تكون.. تحت ذريعة:

إنما تُنجح المقالة في المرء إذا وافقت هوى في الفؤاد..-

فهو إن بخل ليس حباً في المال، وإنما "حِذاراً من الخطوب"[3]

آمن ما يكون المرء يوماً إذا لبس الحذار من الخطوب[4]

---

[1] تكلف: خبر أسرع.

[2] قال بعض أهل الأدب (البخيل: ليس له خليل).

[3] ذكر الجاحظ - في البخلاء - أن (أُحيحة) وهو من سادات الأوس - قبل الاسلام - قال في جمعه للمال..

ولو أني أشاء لنعمت بالاً وباكرني صبوح أو نشول
ومازحني على الأنطاع غيدٌ على أنيابهن الزنجبيل
.. ولكني أهبُّ لجمع مالٍ فأمنع بعد ذلك أو أنيل

ولعل المتنبي أوضح هنا - المراد الآخر.. من الإمساك -: **وما كلّ على بُخلٍ.. يُلام!**

إلا أن ذلك لا ينبذ عنه العتاب حول ما عليه يُعاب، أو "يَستوهمه" مُحبّه فيه، (فالمسلم مرآة أخيه المسلم):

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحّت الأجسام بالعلل

فـ - بخله - فعل الحذر..أو "الخائف من الخطوب".. التي جرّبها وذاق ألم الحرمان والفاقة، فخاف عودتها، ولربما تبخّل[1] و لم يبخل[2]!..

ولعل -..أخيراً - المال (المجد) إن عزّ عليه المجد..،[3]

وأتعس خلق الله من زاد همُّه ... وقصر عما تشتهي النفس وجدهُ

وإلا فإن هناك ما يُسعد.. إن لم تُسعد الحال..، كما قال:

...-

[4] ليس موجوداً هذا البيت في الديوان.

[1] ونرى.. من رصانة شعره.. ما قال بعض أهل الأدب:

(أفضل ما استعان به الشاعر فضلُ غنى، أو فرط طبع..، ذلك أن الشاعر إذا صنع القصيدة وهو في غنى.. وسعة، نقحها وأنعم النظر فيها على مهل..، فإذا كان مع ذلك (طمع) قوي انبعاثها من يَنبُوعها..)

[2] قال الخليل بن أحمد - رحمه الله -:

الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ... ولا يزيدك فيه حول محتال

والفقر في النفس، لا في المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وأسمى من ذلك، التوجيه النبوي، قال صلى الله عليه وسلم: (أحسن من أسلم ورُزق كفافاً وأغناه الله).

[3] قال محمود شاكر - رحمه الله - :

وفي المالِ عَونٌ على مثلِها ... وفي البُؤسِ هونٌ وذُلٌ وقُلّ

– لا خيل عندك تُهديها ولا مال – فليسعد النطق إن لم تُسعد الحال[1]

..أو/

ليكن لديك لسائل فرج أو لم يكن.. فليحسن الردّ

على أننا نشاطره الرأي بقوله:

وما كُلٌّ بمعذورٍ ببُخلٍ ولا كُلٌّ على بُخلٍ يُلام[2]

---

[1] أخذ أحد الحُكماء هذا المعنى..فنثره:

"إذا قصرت يدك عن المكافأة، فليطل لسانك بالشكر".

ونظم صفي الدين الحلي:

إن قصّر لفظي فإن طولك قد طالْ ما مَن فعلَ البرّ والجميل.. كمن قالْ

– وقد تشكّ أن المتنبي أخذ من مبنى عجز البحتري:

فليت ذاك الحبيب ساعفنا وكان وصل، إن لم يكُن مال –

[2] ..أو لنأخذ الجانب الآخر – من نوع البخل–، حين تعجّب الحارث بن عدوان التغلبي!

من عتاب خليلته بـ: **(وكيف يُعيب بخيلٌ.. بخيلا)**

مع التذكير في البين بين المراد..،